المهاجرون اليهود من مصر والشام إلى الإمبراطورية البيزنطية
وعلاقتهم بجماعاتهم الأصلية
(من القرن الرابع إلى السادس الهجري/ العاشر إلى الثاني عشر الميلادي)
دراسة في ضوء وثائق الجنيزة

دكتورة/ فايزة صالح سجيني
أستاذ مساعد بقسم التاريخ، كلية الآداب
جامعة الملك عبد العزيز، بجدة

شهدت العلاقات الإسلامية البيزنطية مدًّا وجَزْرًا أثَّرا دون شك في وضع الأقليات الدينية لكلا الطرفين، سواء الأقليات المسيحية في دولة الخلافة أو الأقليات المسلمة في الإمبراطورية البيزنطية. إلا أن ثمة أقلية ثالثة هي الأقلية اليهودية تأثرت إلى حد كبير بالعلاقات بين الطرفين، أو إذا شئنا الدقة حاولت الاستفادة من حالة العداء الكامنة بين القوتين في تحقيق مصالحها الخاصة، وكان أبرز مظاهر ذلك حدوث هجرات يهودية بين العالمين وقتما تتأزم علاقة اليهود بأحد طرفيه.

ويهدف هذا البحث إلى رصد الهجرة اليهودية من مصر وبلاد الشام إلى أراضي الإمبراطورية البيزنطية خلال القرون من الرابع إلى السادس للهجرة/ العاشر إلى الثاني عشر الميلادي في ضوء أوراق الجنيزة القاهرية، ثم محاولة الكشف عن ماهية الصلات وطبيعتها التي قامت بين هؤلاء المهاجرين وجماعاتهم الأصلية سواء أكانت صلات اجتماعية أم ثقافية أم اقتصادية.

ولنبدأ بما تسجله لنا المصادر عن حادثة هروب أعداد من اليهود من بيزنطة إثر اضطهادهم على يد الإمبراطور رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي ولجوئهم إلى مملكة الخزر اليهودية أو إلى

سواحل مصر، حيث عاشت وازدهرت جالية يهودية كبيرة[1]. ويمكننا الربط بين هذا الحدث وخطاب من وثائق الجنيزة يشير إلى استيلاء البيزنطيين على جزيرة كريت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، وهو خطاب أرسله شخص يهودي يدعى موشيه أجورا Moshe Agura إلى أسرته في مصر يبدي لها أمله في الهجرة واللحاق بها[2]. ويصف موسى لأسرته كيف أنه غادر جزيرة كريت بعد استيلاء البيزنطيين عليها ليستقر في جزيرة رودس -التابعة لبيزنطة وقتذاك- ويسأل أهله عما إذا كانت الأوضاع في مصر مؤهلة للاستقرار بها. ويكشف هذا الخطاب عن أحد اليهود المهاجرين حديثًا من بيزنطة إلى مصر، ربما عقب اضطهاد رومانوس ليكابينوس، حيث تحمل أسرته في مصر أسماء بيزنطية، وخاطب اثنتين من إناثها باسمي كالي kale أي «الجميلة» وبوثيتين Potheten أي «المحبوبة» في اليونانية.

وثمة حدث آخر شهير يحكى عن هجرة أخرى عكسية لليهود من مصر إلى أراضي الإمبراطورية البيزنطية؛ حيث أسهمت السياسة الدينية للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله تجاه النصارى واليهود إلى هجرة أعداد كبيرة منهم إلى الإمبراطورية البيزنطية. وهو الأمر الذي تدعمه المصادر العربية الإسلامية والمسيحية الشرقية، فيقول المقريزي في سرده لأحداث سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م: «فيها أذن الحاكم لليهود

---

(١) المسعودي، كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: Pabbier de Meynard و Pavet de Courteeille، باريس ١٨٣٨م، جـ٢، ص١١٣، وعن الرواية اليهودية انظر:

R.Gold& S.Pritzak, Hebrew Documents from the Tenth Century, Ithaca, ١٩٨٢,pp.٧٩- ٨٠, ١١٤- ١١٥.

وانظر: كذلك:

S.Runciman, the Emperor Romanus Lecapenus and his Reign, Cambridge, ١٩٢٩, p. ٢٣٦.

(٢) نص هذا الخطاب منشور بالكامل مع ترجمته في:

J. Holo, Correspondence from the Cairo Genizah, Evidently Concerning the Byzantine Reconquest of Crete, Journal of Near Eastern Studies ٥٩/٢٠٠٠,pp.١- ١٣.

والنصارى في مسيرهم إلى حيث ساروا من بلاد الروم»[1]. ويذكر ابن العبري أن الحاكم ضيق على اليهود والنصارى وألزمهم بشروط وقيود قاسية «فمن أبى امتثال أمره ألزمه أن يرحل إلى بلاد الروم»[2]. وكذلك يروي يحيى الأنطاكي أن الحاكم «انتهى إليه أن جماعة من النصارى واليهود قد استوحشوا وخافت نفوسهم من المقام في بلاده وأنهم يتسللون إلى بلاد الروم سرًّا ويبذلون لأصحاب المراكز والطرقات مالًا حتى يطلقوهم، فأذن في نفس السنة لجماعة النصارى واليهود بالتوجه إلى بلد الروم بأهلهم وأموالهم»[3].

ولعل ما ذكرته هذه المصادر، وهي مصادر شرقية مسيحية محايدة، يكشف عن زيف ما ورد في وثيقة شعرية من وثائق الجنيزة ينوح فيها اليهودي إلحانان بن شيمارياه Elhanan b. Shemariah لاضطرار الكثيرين من بني قومه إلى التخلي عن عقيدتهم أو الهجرة «دون أن يحملوا في أيديهم إلا التلمود بعد أن تركوا أموالهم وأملاكهم، ليجدوا عونًا من أقرانهم في بيزنطة واليمن والحبشة»[4].

وهناك وثيقة أخرى، كتبت بعد فترة بعيدة من وفاة الحاكم بأمر الله، وهي عبارة عن خطاب مؤرخ بعام ١٠٨٨م، وفيها يحكي أحد علماء اليهود في مصر كيف أن

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ٣ أجزاء، تحقيق جمال الدين الشيال، ط٢، القاهرة ١٤١٦هـ، ١٩٩٦، جـ٢، ص١٠٠.

(٢) ابن العبري (أبو الفرج جمال الدين)، تاريخ الزمان، تعريب الأب إسحاق رملة، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٧٦.

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، نشر لويس شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٥م، ص٢٠٧.

(٤) نص هذه القصيدة منشور ومترجم في:

I. Davidson, Poetic Fragments form Cairo Genizah, Jewish Quarterly Review ٤, ١٩١٣, pp.٥٤- ٥٥.

تضييق الحاكم على طائفته دفعه إلى الهجرة إلى بيت المقدس ثم إلى الأراضي البيزنطية والاستقرار أخيرًا في سالونيك Salonica، إلا أنه سمع عن انقطاع فيضان النيل لنحو نصف قرن فأرسل هذا الخطاب لابنه في القاهرة للاطمئنان عليه، ويسأله عن أفراد عائلته وأصدقائه الذين ظلوا في مصر [١]. والأهم في هذا الخطاب أنه يكشف عن إحدى وسائل المراسلات بين الجماعتين اليهوديتين في مصر وبيزنطة، إذ إن مرسله يسأل ابنه ضرورة الكتابة إليه وتسليم رسالته إلى صديقه «أمرام بن ناحوم Amram b. Nahum» في الإسكندرية، الذي يداوم على مراسلتنا في سالونيك». كذلك يكشف هذا الخطاب عن حنين بعض اليهود إلى العودة لجماعتهم الأصلية في مصر، ففيه يخبر كاتبه ابنه أن زوجته «تتوق إلى العودة للديار» وتشاركها في ذلك ابنتها المولودة على الأرض البيزنطية[٢].

وفي خطاب مماثل، يخص سيدة يهودية تُدْعَى مليحة Maliha هاجرت من مصر إلى بيزنطة، أبدت حنينها للعودة إلى مصر رغم أنها تزوجت في بيزنطة وأنجبت فتاة حملت اسمًا بيزنطيًّا هو زوي Zoe . وفيه تسأله أشقاءها الذكور سليمان Solomon وأبا سعيد Abu Said المجيء لمصاحبتها هي وابنتها إلى مصر [٣].

---

(١) SD. Giiten, The Jewish Commun ities of Saloniki and Thebes, Aefront ١١/١, ١٩٧٧, pp.١١-١٢ .

(٢) Ibid, p.١٣.

(٣) J. Mann, The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, ١٩٧٠, ١١: p.٣٠٧.

هناك حالات أخرى رفضت فيها سيدات يهوديات العودة إلى جماعتهن الأصلية، كزوجة إسرائيل بن ناثان البزنطية التي تزوجها بالقسطنطينة، وعندما رغب في الهجرة ثانية إلى فلسطين رفضت مصاحبته.

D. Jacoby, The Jews of Constantinople and their Demographic. Hinterland, in: Constantinople and its Hinterland, Papers from the Twenty- Seventh Spring Symposium of Byzantin Studies, Oxford, April ١٩٩٣, ed C. Mango& G. Dagron, London, ١٩٩٥, P.٢٢٤.

وتكشف الخطابات السابقة بلا شك عن بقاء بعض اليهود في مصر زمن الحاكم بأمر الله، أو ربما عاد بعضهم ثانية إلى مصر خاصة وأن المصادر العربية والمسيحية الشرقية تشير إلى أن الحاكم سرعان ما تخلى عن سياسته وأصدر مرسومًا بإطلاق الحرية للنصارى واليهود والسماح لهم بالعودة إلى مصر [١]. ويبدو أن العودة إلى مصر شكلت حلمًا لكثير من اليهود المهاجرين إلى بيزنطة خاصة لما تعرضوا له من ممارسات التضييق التي درج عليها الأباطرة البيزنطيون خلال هذه الفترة، خاصة فيما يتعلق بالممارسات الضريبية؛ حيث يشير خطاب موشيه أجورا إلى الأوضاع السيئة لليهود في الأراضي البيزنطية خلال القرن العاشر، الأمر الذي دفعه إلى محاولة العودة لمصر «التي سيجد فيها دون شك حياة أفضل»[٢].

كما تكشف هذه الخطابات عن استمرار نوع من الاتصال بين الجماعتين اليهوديتين في مصر وبيزنطة، حتى وإن كان على مستوى الأفراد، وهو اتصال تشي به أيضًا بعض الخطابات الشخصية والتجارية المرسلة من كريت إلى مصر[٣]، ويؤكده بقاء الأسماء

---

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان ص٧٧، ويذكر فيها: «وظل الحاكم مسترسلًا في ضغطه على النصارى واليهود حتى ندم على فعلته هذه قبل وفاته واضطرهم أن يعود كل منهم إلى دينه، ورخص للنصارى فابتنوا كنائسهم أحسن مما كانت قبل، وعاد المنهزمون إلى بيوتهم من بلاد الروم». يحيى الأنطاكي، التاريخ، ص ٢٢١.

(٢) Holo, Correspondence from the Cairo Genizah, pp.١- ١٣

(٣) يبدو أن هذه المعاملة السيئة استمرت حتى القرن الثاني عشر، حيث يذكر بنيامين التطيلي في رحلته: «ويلحق باليهود أذى شديد من سائر السكان، وتحيط بهم موجة من الاضطهاد، وهم يتحملون ما يصيبهم من جور وخَسْف بصبر جميل». رحلة بنيامين التطيلي، ص٢٢٤- ٢٢٥.

N. de lange, Greek Jewish Texts from the Cairo Genizah, Tubingen, ١٩٩٦. pp.١١-٢٨; Holo. Correspondence from Cairo Genizah, pp. ١-١٣.

اليونانية بين اليهود المصريين مثل ليو Leo ويودوكيا Eudokia[1] ويرى ديفيد جاكوني David Jacoby. ويرى ديفيد جاكوني أنه عن طريق هذه الاتصالات تكونت شبكة من اليهود متحدثي اليونانية والعربية جعلت الهجرة من العالم الإسلامي، خاصة مصر، إلى الإمبراطورية البيزنطية أكثر يسرًا، والأهم أكثر إغراءً[2].

وفي القرن الحادي عشر الميلادي، شجع احتلال البيزنطيين للرها سنة ١٠٣٢م على يد القائد جورج مانياكس George Maniakes فضلًا عن إغراء بيزنطة التجاري والاقتصادي في أعين يهود الشام، خاصة من طائفة القرائين Karaites على هجرة يهودية كبرى للأراضي البيزنطية، وهو الأمر الذي علق عليه أنكوري Ankori بقوله: «لا شك في أن احتلال البيزنطيين للرها والمناطق المجاورة لها أدى إلى زيادة عدد سكان بيزنطة من القرائين»[3]، وعلق عليه هولو Holo بأن «هجرة قرائي الشام إلى بيزنطة نقل مركز طائفتهم بالكامل من بيت المقدس إلى القسطنطينية[4]. وهناك خطاب لشخص يُدعى طوبياس بن موسى Tobias b. Moses، يتحدث عن نفسه بوصفه عالمًا نقل العديد من كلاسيكيات طائفته من اللغة العربية إلى العبرية، ويشير

---

(١) DeLange. Greek Jewish Texts, p.١٨.

(٢) Migration of Merchants and Craftsmen, in: Trade, Commodities and Shipping in the Medieval Mediterranean, Aldershot, ١٩٩٧, p.٥٤٢.

(٣) Z. Ankori, karaites in Byzantium: the Formative Years ٩٧٠- ١١٠٠,New York. ١٩٥٩, p. ١٢٩.

(٤) J.Holo, An Economic History of the Jews of Byzantium from the Eve of the Arab Conquest to the Fourth Crusade, ph. D, University of Chicago. ٢٠٠١, p.٥٢.

يشير بنيامين التطيلي في رحلته إلى وجود نحو ألفي يهودي من الرابيين وخمسمائة من القرائين، فيقول: «وتقيم الطائفتان في حي واحد يفصل ما بينهما سور.. وهو حي منعزل عن سائر الأحياء وراء خليج مرمرة الذي يفصل بينهم والمدينة: «رحلة بنيامين التطيلي، ٥٦١- ٥٦٩هـ/ ١١٦٥- ١١٧٣م ترجمة عزرا حداد، دراسة وتقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٢٢٣- ٢٢٤.

هذا الخطاب إلى حدوث خلاف بينه وبين حبر القرائين المدعو حزقيا Hezekiah، الأمر الذي جعله «يفضل مغادرة فلسطين إلى منزله في بيزنطة بأسرع ما أمكنه»[١].

ويبدو أن معركة منزكرت Manzikert التي ألحق فيها السلاجقة هزيمة ساحقة بالبيزنطيين سنة ١٠٧١م وأدت إلى ضياع معظم أملاك بيزنطة في آسيا الصغرى، فضلًا عن نشوب الحركة الصليبية عام ١٠٩٦م، لم تؤثر على استمرارية هجرة اليهود إلى الأراضي البيزنطية، فثمة خطاب مؤرخ بعام ١١٣٧م أرسله طبيب مصري يعيش في سلوقية Seleucia (قليقية) إلى أسرته في مصر، ورغم أن الخطاب لا يوضح كيفية بلوغه سلوقية إلا أنه يشير إلى وجود جماعة يهودية تتحدث اللغة العربية هناك، كما يخبرنا عن أحد المعلمين الرابيين Rabbi الملقب بالحموي Hamawi «يعيش في بالايا Palaia، التي تبعد عن سلوقية بذات المسافة التي تفصل بين القاهرة والفيوم، لقد زوج بناته بها، وجعل منها مكانًا لا يختلف في شيء عن موطنه الأصلي في الفيوم، وخدم الجماعة كرابي ومبشر وقاضٍ ورئيس لها. وكانت هذه الجماعة تضم حوالي خمسين عائلة»[٢]. كذلك؛ يشي هذا الخطاب بأن يهودًا آخرين من مصر اتخذوا طريقهم إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية، إذ يرثي رحيل أكبر أبناء عمومة هذا الطبيب، والمدعو أبو الحسن Abul-Hasan، الذي توفي في القسطنطينية [٣].

كذلك يشير خطاب هذا الطبيب إلى جماعة يهودية أخرى من طائفة الرابيين تركت فلسطين إلى الإمبراطورية البيزنطية، حيث يتحدث عن ابن شيفي Ben Shevi الذي طلب إيصالًا لدين أقرضه لشخص آخر يدعى أبراهام Abraham المهاجر من

---

(١) Z. Ankori, Correspondence of Tobias ben Moses, the Karaite, of Constantinople, Essays on Jewish Life and Thought, ed. J. Blau, New York. ١٩٥٩, pp.٢٣- ٢٧.

(٢) S.D. Goitein, A Letter from Seleucia (Cilicia) Speculum ٣٩, ١٩٦٤, pp. ٢٩٨- ٣٠٧. Holo, Jews of Byzantium, pp. ٥٤-٥٥.

(٣) Ibid, p. ٣٠٠

عكا[1]. وبالطبع كانت بيت المقدس محطة لهجرة العالم اليهودي السالف الذكر الذي استقر به المقام في سالونيك.

ويكشف خطاب آخر عن اتصالات بين يهود الشام ويهود بيزنطة عشية الحملة الصليبية الأولى، وفيه كتب يهودي يُدعى مناحم بن إليا Menahem b. Elijah: «بلغتنا معلومات مؤكدة بأن الرابي إيفياتار كوهين Evyatar Kohen أرسل خطابًا من طرابلس Tripolis إلى جماعة القسطنطينية يدعوهم إلى الصلاة والصوم»[2]. وأخيرًا هناك خطاب آخر مؤرخ بالقرن الثاني عشر الميلادي يؤكد استقرار جماعات يهودية ناطقة بالعربية في بيزنطة، وفيه كتب المدعو صمويل بن بافلي Samuel b. Bavli بالعربية إلى شخص يهودي آخر في القاهرة القديمة معبرًا عن طموحه إلى الدراسة «في أكاديميات طبية Thebes وسالونيك»[3].

وإذا كان صمويل هذا يطمح إلى الدراسة في طيبة وسالونيك، فهناك مصادر يهودية أخرى تكشف عن قدوم عدد من اليهود البيزنطيين للدراسة في قلب العالم الإسلامي. فيحدثنا هولو Holo عن عالم القرن الحادي عشر اليهودي هاي جاعون Hai Gaon الذي اندهش لكثرة عدد اليهود الوافدين من القسطنطينية للدراسة في بغداد، وعن طالبين آخرين وفدا من بيزنطة للتعلم في مصر في ذات الفترة[4].

ويبدو أن الصلات العلمية والثقافية بين الجماعات اليهودية في كل من بيزنطة والعالم الإسلامي -كما تكشف لنا وثائق الجنيزة- امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك،

---

(١) Ibid, p. ٢٩٩.

(٢) Holo, jews of Byzantium, pp. ٦٣- ٦٤.

(٣) GoItein, Jewish Communities of Salonika and Thebes, p. ١٣.

(٤) Holo, jews of Byzantium, p. ٦٩.

فقد كتب يهودي هاجر إلى سلوقية في القرن الثاني عشر الميلادي إلى أفراد أسرته في مصر خطابًا يدعوهم فيه إلى اللحاق به، ويطلب منهم أن يحضروا معهم كتبًا، ويشير في ذات الخطاب إلى أنه طلب قبلًا من «قادة» الحملات العسكرية البيزنطية في الشرق أن يزودوه بما قد يقع في أيديهم من كتب ضمن غنائم النصر [١]. وفي خطاب صمويل بن بافلي سالف الذكر أوضح أنه اضطر إلى الارتحال للفسطاط لشراء الكتب قبل هجرته إلى سالونيك [٢]، وفي خطاب آخر له يتضح أن صمويل هذا ربما كان يتاجر في الكتب التي يتحصل عليها من مصر والشام، فبالإضافة إلى إبدائه رغبته في الاستقرار بسالونيك والدارسة فيها، أشار إلى وجود طلب مُلح بين أفراد جماعته بها للحصول على الكتب الحديثة، وأشار من بينها إلى مؤلف لعالم يُدعى باحيا بن باقودة Bahya Ibn Paqudah[٣]. وفي خطاب ثالث أرسله شخص يدعى إليا Elijah من سالونيك إلى أخيه في الفسطاط، طلب منه إرسال نسخة ثانية من كتاب كان قد أرسله إليه قبلًا[٤].

ومما سبق يتضح أن اليهود العرب الذين هاجروا إلى بيزنطة بعد القرن العاشر ظلوا على اتصال بجماعاتهم الأصلية، وهي الحقيقة التي تشي بها وثائق الجنيزة فيما يتعلق بمصر والشام على وجه الخصوص. وهناك وثائق تؤكد أن الجماعات اليهودية في بيزنطة ومصر والشام ظلت على اتصال متبادل بغية رعاية أفرادها وتوفير أموال الفداء لمن قد يقع منهم في أسر المسلمين أو البيزنطيين خلال الحروب بين الطرفين، وهو الأمر الذي دفع يعقوب مان Jacob Mann إلى القول بأنه إذا كانت هناك جماعات يهودية ذات أصول مصرية وشامية اضطلعت بفداء بني جلدتهم حال

---

(١) Goitein, A Letter from Seleucia, p. ٥٣٣.

(٢) Goitein, Jewish Communities of Salonika and Thebes, p ١٥.

(٣) Ibid, p ١٧.

(٤) Holo, Jews of Byzantium, pp. ١٠٩- ١١٠.

وقوعهم في أسر البيزنطيين «فلا بد أن ثمة جماعة مناظرة من اليهود البيزنطيين استقرت في مصر وحملت على عاتقها مهمة فداء بني جلدتهم»[١].

وهناك خطاب أرسلته جماعة اليهود في الإسكندرية إلى إفرايم بن شيماریاه Ephraim b. Shemariah رئيس الجماعة الشامية في الفسطاط جاء فيه: «نخبرك أيها الأخ المبجل أن ثمة امرأة جاءوا بها من بيزنطة وافتديناها بأربعة وعشرين دينارًا ذهبيًّا، حصلنا على نصفها منك بينما اضطلعنا بدفع النصف الآخر كضريبة حكومية، ووجدنا في قبضة البحارة رجلين آخرين، أحدهما شاب يافع دارس للتوراة والآخر صبي في العاشرة من عمره، وما اعتصر قلوبنا أنهما تعرضا للضرب والإهانة أمامنا، فأخذتنا الشفقة بهما وافتديناهما، إلا أن المشكلة لم تحل بعد، إذ إن ثمة سفينة أخرى جاءت من بيزنطة وعلى متنها عدد كبير من الأسرى، من بينهم طبيب وزوجته، والأمر الذي يزيد من حيرتنا وألمنا أننا لا نمتلك المزيد لفدائهم»[٢]، وتحدثنا وثيقة أخرى عن قيام جماعة اليهود في مصر بافتداء سبعة يهود بيزنطيين لقاء ثلاثة وثلاثين دينارًا للشخص الواحد، وتشير إلى أن هؤلاء السبعة تم أسرهم في الأناضول وحُملوا إلى الإسكندرية[٣]، وثمة وثيقة ثالثة تشير إلى ارتحال يهودي من الإسكندرية يُدْعَى ليوLoe إلى بيزنطة للحصول على أموال لفداء يهود بيزنطيين مأسورين في الإسكندرية[٤].

---

(١) Mann, The Jwes in Egypt and Palestine, I: p. ٩٣, II:pp.٩٤- ٩٦.

(٢) Ibid, II: p. ٨٩.

(٣) Ibid, I: pp. ٨٨-٩٠.

(٤) J. Blau & S, Hopkins, Judeo Arabic Letter, Jerusalem Studies in Arabic and Islam ٦, ١٩٨٥. p. ٤٣٠.

وفي خطاب آخر أرسله يوشع بن جوزيف Yeshua b. Joseph إلى إفرايم ابن شيمارياه سالف الذكر، طلب منه خطاب توصية على أسير بيزنطي في الإسكندرية يدعى شابيتاي بن نيتانيل Shabbetai b. Netanel الذي يود الحج إلى بيت المقدس قبل أن يسافر إلى بيزنطة، فرد عليه الأخير في رسالة أخرى: «نسمح لشابيتاي بن نيتانيل ومن معه من الأسرى الآخرين بالسفر تلبية لرغبته في زيارة بيت المقدس والصلاة على الجبل المقدس»[1].

ولا شك في أن فكرة الحج اليهودية وارتباطها الأيديولوجي ببيت المقدس فرض صلة بين الجماعة اليهودية في بيزنطة وفلسطين الإسلامية خلال هذه الفترة، وهو أمر أوضحته وثيقة تشير إلى يهودي روسي زار سالونيك في القرن الثاني عشر في رحلة ذات غرض تجاري صرف، وهناك التقى بقريب له من يهود سالونيك الذي حثه على النهل من فضائل زيارة الأرض المقدسة [2].

وأخيرًا؛ لا شك في أن التجارة والمال كان الشغل الشاغل لليهود عبر تاريخهم، ومن ثم لا بد أن الصلات التجارية بين الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي وأقرانهم المهاجرين إلى بيزنطة شكلت أساسًا لاستمرارية العلاقات والروابط فيما بينهم، لقد هاجرت عائلات اشتغلت بالتجارة إلى بيزنطة، وثمة خطاب أرسل من الفسطاط في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، أرسله المدعو جوزيف Joseph إلى أحد أقربائه المقيمين في عدن Aden يروي فيه مصير أفراد أسرته، وكيف أن خاله –الذي عمل جوزيف وكيلًا لتجارته في مصر– مات في بيزنطة دون أية معلومات عن وضع أملاكه، وكيف أن أسرته عملت على استدعاء أرملة خاله إلى الفسطاط لمعاقبتها بسبب أنها

---

(١) - J. Mann, The Jews in Egypt and Palestine, ١: p. ٩٢; SD. Goitein, Contemporary Letters on the Capture of Jerusalem by the Crusaders, Jouranal of Jewish Studies ٣, ١٩٥٢, p. ١٦٢.

(٢) Mann, The Jews in Egypt and Palestine, II: p١٩٢.

أنجبت طفلًا من الحرام، إلا أن بعض اليهود البيزنطيين كمنصور بن موسى Mansur Ibn Moses ومنصور بن الخبيث Mansur Ibn al-Khabith دافعا عنها وحشدا نحو عشرة يهود آخرين للشهادة بأن طفلها من خاله[١].

وهناك وثائق أخرى تكشف عن تجار يهود سافروا عبر البحر بين بيزنطة ومصر، فيشير خطاب يرجع إلى القرن الحادي عشر إلى قيام يهودي ببيع الجلد المدبوغ من بيزنطة إلى مصر[٢]، ويشير خطاب آخر إلى تاجر يهودي مصري يُدعى مُفَرَّج Mufarraj قام برحلة تجارية إلى العديد من الأصقاع شملت بيزنطة، وفيه كتب إسحاق حازان الفاسي Isaac Hazzan al-Fasi من دمشق إلى أبراهام بن كوهين بن حاجاي Abraham b. Kohen b. Haggai في الفسطاط يخبره بأن التاجر على بن يفيت ليفي Ali b. Yefet Levi يشكره على ما قدمه من رعاية لأخيه مفرج خلال عودته من رحلته من بيزنطة[٣]. وهناك خطاب ثالث يصف فيه كاتبه رحلته التجارية من مصر إلى جزيرة قبرص الخاضعة وقتذاك للسيادة البيزنطية[٤]. كذلك تشير عمليات الفداء المتكررة التي اضطلعت بها الجماعات اليهودية في مصر وبيزنطة لافتداء اليهود على كلا الجانبين، خاصة من قبل الجماعة اليهودية في الإسكندرية، إلى احتمالية أسر عدد من التجار اليهود أثناء ممارستهم عملهم التجاري والإبحار عبر البحر المتوسط بين مصر وبيزنطة.

---

(١) Holo, Jews of Byzantium, p. ١٧٠.

(٢) Ibid, p. ١٧٥.

(٣) Mann, The Jews in Egypt and Palestine, I: p.١٠٤, II:pp. ١١٣-١١٤.

(٤) S.D. Goitein, Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton, ١٩٧٣, pp. ٣٣٠- ٣٣٢.

إلا أن التجارة بين الجماعات اليهودية في بيزنطة ومصر تعرضت أحيانًا لبعض التضييقات من قبل السلطات البيزنطية، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالسلع الاستراتيجية، فثمة إشارة تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي إلى يهودي بيزنطي كان يعمل في ورش الحرير الإمبراطورية اضطر إلى الهرب من بيزنطة إلى الفسطاط نتيجة اتهامه بتهريب الحرير البيزنطي إلى التجار اليهود في مصر[1]. وهي إشارة تشي بأمرين: أولهما أن الحرير كان سلعة استراتيجية حظرت السلطات البيزنطية على اليهود خاصة، والأجانب بصفة عامة[2]، الاتجار فيها؛ والثاني أن اليهود رغم هذا الحظر تحايلوا عليه وعمدوا إلى تهريبه إما عن طريق صُنَّاعهم في الورش الإمبراطورية أو عن طريق الحصول عليه من مناطق أخرى. فهناك خطاب أرسله يهودي يُدعى موسى بن يعقوب Moses b. Jacob من بيت المقدس إلى تاجر يهودي في القسطنطينية يطلب

---

(١) D. Jacoby, Silk in Western Byzantium, Dumbarton Oaks Papers ٤٨, ١٩٩٤. p. ٤٨٢.

يبدو أن يهود بيزنطة ارتبطوا بصناعة الحرير فيها، حيث يشير بنيامين التطيلي في رحلته إلى أن أغلب يهود القسطنطينية احترفوا حياكة أثواب الحرير، وبينهم التجار ذوو الثروة الواسعة. وفي حديثه عن مدينة طيبة يقول: «بلد كبيرة فيها نحو ألفي يهودي، وهم صناع مهرة ينقلون نسج الأقمشة الحريرية الملونة الرائجة من بلاد اليونان». رحلة بنيامين التطيلي، ص٢١٢، ٢٢٤.

(٢) من المعروف أن الأباطرة البيزنطيين حظروا التجارة في الحرير حفاظًا على سر صناعته. انظر: ليو السادس، كتاب والي المدينة، ترجمة السيد الباز العريني، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج١٩، ج١، القاهرة ١٩٥٧م، وعلى المستوى التطبيقي يقدم لنا تقرير ليوتبراند أسقف كريمونا عن سفارته في القسطنطينية عام ٩٦٨م، وصفًا لمدى حرص السلطات البيزنطية على عدم تهريب الأجانب للحرير البيزنطي؛ فيحدثنا كيف أن موظفي الإدارة عمدوا إلى تفتيشه قبل مغادرته العاصمة الإمبراطورية وصادروا كل ما اشتراه من الأثواب الحريرية المحظورة على كل الأمم باستثنائنا نحن الرومان. ليوتبرند أسقف كريمونا، السفارة إلى القسطنطينية ٩٦٨م، ترجمة على أحمد محمد السيد، الإسكندرية، د: ت، ص٦٧- ٦٨، وانظر: كذلك:

G. C. Maniatis, Organization, Market Structure and Modus Operandi of the Private Silk Industry in Tenth Century Byzantium, Dumbarton Oaks Papers ٥٣. ١٩٩٩. pp ٢٦٣- ٣٣٢.

منه شراء سبع لفات من الحرير الملون عالي الجودة المصنوع في العاصمة البيزنطية[1]. وفي خطاب آخر أرسل من رام الله Ramleh كتب يهودي إلى تاجر بالقسطنطينية يشكو من اضطراره إلى شراء الحرير من جزيرة قبرص، الأمر الذي أدى إلى اضطراره لدفع ثمن مضاعف لقاء الحصول عليه[2].

ومما سبق يتضح لنا أن العلاقات الإسلامية البيزنطية كانت لها تأثيراتها النسبية على حال اليهود في كلا العالمين، اتضحت في لجوء الأخيرين إلى الهجرة لأراضي أحدهما عندما تتأزم أوضاعهم في العالم الآخر. وبأية حال فقد ظل اليهود المهاجرون من مصر والشام إلى أراضي الإمبراطورية البيزنطية على اتصال بجماعاتهم الأصلية، على الأقل بأفراد أسرهم وعائلاتهم الذين لم يهاجروا، أو ربما هاجروا ثم عادوا ثانية عندما تبدلت الظروف وتحسنت أوضاعهم في قلب العالم الإسلامي، وظل كثيرون منهم يتوقون إلى العودة لأسرهم ويتملكهم الحنين إلى جماعاتهم الأصلية نظرًا لما تعرضوا له من تضييق متواصل من قبل أباطرة بيزنطة الذين درجوا في سياساتهم على اضطهاد اليهود، مقارنة بتسامح عام اتسمت به أوضاعهم في العالم الإسلامي كما تشي كتاباتهم ووثائقهم هم أنفسهم.

كذلك، يتضح مما سبق أن اليهود في كلا العالمين اتسموا بالحرص على رعاية أقرانهم وتوفير حاجياتهم من كتب وأموال، كما ظهر اضطلاع الجماعتين بمهمة تحرير الأسرى اليهود من قبضة المسلمين والبيزنطيين على السواء واستشعروا أوضاعهم الاقتصادية المتميزة واشتغالهم في التجارة لتوفير حاجيات تجارهم من السلع والبضائع التجارية، حتى تلك المحظورة منها من قبل السلطات البيزنطية.

***

(١) M. Gil, A History of Palestine ٦٣٤- ١٠٩٩, trans. Ethel Broido, Cambridge and New York, ١٩٩٢, p. ٢٤٤.

(٢) Goitein, Letters of Medieval Jewish Traders, p. ٤٧.

الملاحق

١- نموذج من الوثائق المعتمد عليها في البحث

(خطاب مليحة إلى أخويها أبي سعيد وسليمان)

1- Peace from on high and blessings to those (who flourish) like Plants,[2] like drops from heaven and the fishes of the depths.

2- Strength and vigor, grace, lovingkindness and mercy, and like the father of multitude who lived a full life[3].

3- And like him who was bound in on the mountain supernal,[4] and like Jacob, a man of perfection and a dreamer of dreams; like him who sprinkles its blood.

4- Seven times.[5] May all blessings come and occur, be bound unto and be set upon on the heads of my brothers.

5- Mar Solomon and "Abu Sa'id" gentle and deeply missed brothers, from me, Maliha, your sister.

6- And my small daughter who is called zoe, who pays her respects to you. we are alive, and we (have placed our) trust.

7- in the Rock of our redemption that you are, too, in happiness without mishap, rejoicing without pressures, contentedness.

8- And profit without fatigue or lament. Now, I cannot write you that I am well, I am not well.

9- Because at this moment, I'll tell you, my soul is restless in my heart, my step has faltered.[6] my bones.

10- tremble,[7] and my strength has melted away, for I have been separated from you now a number of years. Deep is.

11- My yearning to see you face to face, and I would run at a pace of a lion.

12- and rush (to see you), indeed I said: "woul that I had the wings of a dove,"[8] that I might take wing and be rejoined with

13- my brothers, and our master the fourth,[9] but I am not able (to go) because the time is not right

14- In fact, I recently arranged to go with certain people, but I looked in the Torah scroll, and (continuing in the margin) my luck came up poor, such that I did not[10] succeed (in realizing my plans).

15- and could not go with them. For Heaven's sake, do you not see the men of the communities.

16- of Romania?[11] when members of their (community) are captured, their relatives go (after them) to redeem them. So.

17- why does not one of you take his life into his own hands to come to me and take me (back), for I.

18- cannot allow myself to take up with anyone else. Now, why should I go alone? While I

19- remain here, the Lord does not deny me my needs, but if I should go there (alone) and something should happen to me.

20- of an evil nature, better I should die. Now, I have known you since you were young.

21- ...Merchandise and come here to Romania.

22- ...and one of you could take merchadise[12].

VERSO (ADDRESS, TWO COLUMNS)

May this letter arrive in happiness and joy to those honorable men of holiness,[13] my dear brothers Abu sa'id and Solomon

From me, your sister Knowon as Maliha

المصدر

Mann, The Jews in Egypt and Palestine
under the Fatimid Caliphs, II: pp. 306- 307.

٢- جدول بوثائق الجنيزة التي تم الاعتماد عليها في البحث

م	المرسل	المرسل إليه	التاريخ
١	موشيه أجورا المقيم في جزيرة رودس	أسرته المقيمة في مصر	قرن ٥هـ/ ١١م
٢	عالم يهودي مقيم في سالونيك	ابنه المقيم بالفسطاط	قرن ٥هـ/ ١١م
٣	مليحة المقيمة في بيزنطة	أخواها سليمان وأبو سعيد في مصر	١٠٨٨م
٤	طبيب مصري مقيم في سلوقية	أسرته في مصر	١١٣٧م
٥	مناحم بن إليا المقيم في القسطنطينية		قرن ٥هـ/ ١١م
٦	صمويل بن بافلي بيزنطة	شخص بالفسطاط	قرن ٦هـ/ ١٢م
٧	يهودي بسلوقية	أفراد أسرته في مصر	قرن ٦هـ/ ١٢م
٨	إليا	أخوه	قرن ٦هـ/ ١٢م

م	المرسل	المرسل إليه	التاريخ
	بسالونيك	في الفسطاط	
٩	جماعة اليهود في الإسكندرية	إفرايم بن شيمارياه رئيس الجماعة الشامية بالفسطاط	قرن ٥هـ/ ١١م
١٠	يوشع بن يوسف	إفرايم بن شيمارياه	قرن ٥هـ/ ١١م
١١	يوسف الفسطاط	أحد أقربائه في عدن	قرن ٦هـ/ ١٢م
١٢	إسحاق حازان الفاسي من دمشق	أبراهام بن كوهين بن حاجاي بالفسطاط	قرن ٥هـ/ ١١م
١٣	موسى بن يعقوب التاجر	تاجر بالقسطنطينية	قرن ٥هـ/ ١١م
١٤	تاجر يهودي من رام الله	تاجر بالقسطنطينية	قرن ٥هـ/ ١١م

❊❊❊

مصادر ومراجع البحث

أولًا : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ٥٦١- ٥٦٩هـ/ ١١٦٥- ١١٧٣م، ترجمة عزرا حداد، دارسة وتقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- ابن العبري (أبو الفرج جمال الدين): تاريخ الزمان، تعريب الأب إسحق رملة، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٥م.
- ليو السادس: كتاب والي المدينة، ترجمة السيد الباز العريني، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج١٩، ج١، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ليوتبراند أسقف كريمونا: السفارة إلى القسطنطينية ٩٦٨م، ترجمة علي أحمد محمد السيد، الإسكندرية، د. ت.
- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: Babbier C. de Meynard وPavet de Courteille، باريس١٨٣٨م.
- المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ٣ أجزاء، تحقيق جمال الدين الشيال، ط٢، القاهرة ١٤١٦هـ، ١٩٩٦.
- يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، نشر لويس شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٥م.

ثانيًا : المصادر والمراجع الأجنبية :

- Z. Ankori, karaites in Byzantium: the Formative Years 970-1100,New York, 1959.

- Z. Ankori, Correspondence of Tobias ben Moses, the Karaite, of Constantinople, Essays on Jewish Life and Thought, ed. J. Blau, New York. 1959.

- J. Blau & S, Hopkins, judeo-Arabic Letter, Jerusalem Studies in **Arabic and Islam** 6, 1985.

- I. Davidson, Poetic Fragments from Cairo Genizah, Jewish Quarterly Review 4, 1913.

- N. de lange, Greek Jewish Texts from the Cairo Genizah, Tubingen, 1996.

- M. Gil, A History of Palestine 634-1099, trans. Ethel Broido, Cambridge and New York, 1992.

- SD. Goitein, The Jewish Communities of Salonika and Thebes, Sefront 11/1, 1977.

- SD. Goitein, Contemporary Letters on the Capture of Jerusalem by the Crusaders, Journal of Jewish Studies 3, 1952.

- S.D. Goitein, A Letter from Seleucia (Cilicia), Speculum 39, 1964.

- S.D. Goitein, Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton. 1973.

- R.Golb& S.Pritzak, Hebrew Documents from the Tenth Century, Ithaca, 1982

- J. Holo, Correspondence from the Cairo Genizah, Evidently Concerning the Byzantine Reconquest of Crete, Journal of Near Eastern Studies 59, 2000.

- J.Holo, An Economic History of the Jews of Byzantium from the Eve of the Arab Conquest to the Fourth Crusade, ph. D, University of Chicago, 2001.

- D. Jacoby, The Jews of Constantinople and their Demographic Hinterland, in: Constantinople and its Hinterland, Papers from thr Twenty- Seventh Spring Symposium of Byzantine Studies, Oxford, April 1993 ed. C. Mango& G. Dagron, London, 1995.

- D. Jacoby, Silk in Western Byzantium, Dumbarton Oaks Papers 48, 1994.

- D. Jacoby, Migration of Merchants and Craftsmen, in: Trade, Commodities and Shipping in the Medieval Mediterranean, Aldershot, 1997.

- G. C. Naniatis, Organization, Market Structure and Modus operandi of the Private Silk Industry in Tenth Century Byzantium, Dumbarton Oaks Papers 53. 1999.

- J. Mann, The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, 1970.

- S.Runciman, The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign, Cambridge, 1929.

❊❊❊